خطاب الموت في شعر لبيد بن ربيعة.

The speech of death in the poetry of Lobaid bin Rabia.

نور الهدى بعطوط *
جامعة الوادي (الجزائر)
nourelhouda-baatout@univ-eloued.dz
أد/ نبيل مزوار
جامعة الوادي (الجزائر)
Mezouarna@yahoo.fr
مخبر التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الاجتماعية.

تاريخ الاستلام: 2025/09/04 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النَّشر: 2025/12/16

ملخص:

يندرج هذا البحث في إطار استجلاء خطاب الموت في الشعر العربي القديم، من خلال كشف مظاهر القلق من الموت في شعر لبيد بن ربيعة، على الرغم من أن هذا الموضوع غدا من المسلمات في الطرح والفكر الإسلامي، ممّا أعطى هذا القلق والخوف والجو النفسي الكئيب مشهدا جماليا، وهذا ما تحاول هذه المقالة كشفه ومحاولة استجلاء هذه المعالم الظاهرة والخفية على النص الشعري.

الكلمات المفتاحية: خطاب الموت؛ لبيد بن ربيعة؛ الشعر العربي القديم؛ الزهد؛ القلق.

Abstract:

This study falls within the framework of exploring the discourse of death in classical Arabic poetry, specifically by examining manifestations of anxiety about death in the poetry of Lobaid ibn Rabi‘a. Although the theme of death has become a well-established concept in Islamic thought

* المؤلف المراسل

and discourse, the presence of such anxiety, fear, and a somber psychological atmosphere lends the poetic text a distinctive aesthetic dimension.

This article seeks to uncover and elucidate both the overt and subtle features of this phenomenon within the poetic text.

key words: Discourse of Death; Lobaid ibn Rabi'ah; Ancient Arabic Poetry; Asceticism; Anxiety

مقدّمة:

شكّل القلق من الموت هاجسًا إنسانيًا ملازمًا للبشر منذ القدم، إذ لم يكن الإنسان الجاهلي بمنأى عن هذا الشعور، بل عبّر عنه من خلال رؤى وتجارب وجودية عميقة، انعكست في أشعاره وتصوّراته. غير أن هذا القلق لم يكن دائمًا طبيعيًا، فقد يتفاقم ليُفرز اضطرابات نفسية وانفعالات حادة تتجاوز الحدّ المألوف. ويُعدّ الشاعر لُبيد بن ربيعة أحد النماذج البارزة التي تجسّد هذا الوعي الوجودي، إذ عُرف بحكمته وتعقله في التعامل مع مخاوف الحياة، وهو ما تجلى بوضوح في قصيدته **بلينا وماتبلى النّجوم الطوالع**، والتي تم دراستها في هذا البحث عن طريق المنهج الوصفي والتاريخي، وبالاستعانة أيضا بالمنهج التاريخي.

كشفت هذه القصيدة عن رؤية فلسفية متماسكة تجاه الحياة، من خلال تناولها لموضوعات متعددة ومتنوعة، تعبّر عن قلق الشاعر الوجودي ومحاولته فهم المصير الإنساني والتسليم به. كما تبرز فيها ملامح دعوته إلى القيم الأخلاقية كالزهد في الدنيا، والعمل الصالح، والتخلي عن الأوهام والخرافات التي لا تُفضي إلاّ إلى الضياع.

المطلب الأول: ترجمة الشاعر لبيد بن ربيعة

يعتبر الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة أحد أهم الشعراء الذين عُرفوا بالحكمة، فقد تميّز بفطرته السليمة وبحنكته منذ الصغر، وعليه فقد تطرقنا في هذا المطلب إلى نسبه وبعض أهم المقتطفات من حياته، كما تم التعرف على المكانة التي كان يحظى بها بين الشعراء في ذلك العصر.

الفرع الأول: نسبه وحياته:

"هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر هوزان بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن غيلان بن مضر........ مات أبوه وهو صغير في حرب كانت بين بني عامر وبين لبيد...... وأمّ لبيد عبسيه اسمها تامرة بنت زنباع، مات سنة 40 للهجرة و 660 للميلاد"[1].

فهو من أسرة ذات مكانه مرموقة وذات مجد، لذلك فهو يفخر بهذه المكانة والسيادة[2].

فيقول على إثر هذا منشدا أبياته:

فلا تسألينا واسألي عن بلاءنا إبادًا وكلبًا من معد ووائلا

وقيسا ومن لقت تميم ومذحجا وكندةَ إذ وافت عليكَ المنازلاَ

لأحسابنا فيهم بلاءٌ ونعمةٌ ولم يك ساعينا عن المجد غافِلا[3]

الفرع الثاني: مكانته في الشعر الجاهلي:

اعتبر لبيد بن ربيعة من الشعراء المجيدين المتمكنين في عصره؛ حيث صنّفه ابن سلام في الطبقة الثالثة من طبقات الشعراء، إذ قارنه بنابغة بني جعدة وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ [4]. "وروي أن النابغة استنشده وهو شاب عند باب النّعمان بن المنذر، فأنشده قصيدته التي أولها:

ألم تلمِمْ على الدمن الخوالي لسلمى بالمذانب فالقفال[5]

فقال له النّابغة: أنت أشعر بني عامر، زدني. فأنشده:

طلل لخوله برسيس قديم بمعاقل فالأنعمين وشوم

فقال له أنت أشعر هوزان، فزدني. فأنشده قوله:

عفَتِ الديارُ محلها فمقامها بمنى تأبَّد غَوْلُها فرجامها

فقال له النابغة: اذهب فأنت أشعر العرب.[6]

وهكذا، فقد اعتبر الشّاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة، ذو مكانه رفيعة بين الشعراء. فقد أثبت جدارته من خلال معلقاته التي عدّته أحد أشعر العرب في ذلك الوقت وبعده. لكن روت الكتب بأنه بعدما اعتنق الإسلام فإنه توقف عن قول الشّعر إلا قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسهِ والمرء يصلحه القرينُ الصالحُ[7]

فبالإضافة إلى هذه الرتبة التي حظي بها بين الشعراء المجدين في ذلكم الوقت، فإنه عُرف بنباهته وذكائه وسخائه وكرمه أيضا، ناهيك عن كونه من الذين حسن إسلامهم وكان من المتمسكين به.

كان المعتصم يعجب بشعر لبيد. فقال: من منكم يروي قوله: بلينا وما تبلى النجوم الطوالع. فقال بعض الجلساء" أنا" فقال: أنشدنيها، فأنشده:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى بعدنا الجبال والمصانع

وقد كنت في أكناف جار مضنة ففارقني جار بأربد نافع

فبكى المعتصم حتى جرت دموعه. وترحم على المأمون[8]

وقد روي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: " ألا كل شيء ما خلا الله باطل"[9]

المطلب الثاني: تجليات الموت في شعر لبيد بن ربيعة، قصيدة "بلينا وما تبلى النجوم الطوالع" أنموذجا.

قبل الغوص في ثنايا القصيدة واستخراج مظاهر الموت، تمّ التّطرق أولاً إلى تأثير البيئة الجاهلية على مفاهيم الموت، وكيف أن البيئة تلعب دورا كبير على نفسية الفرد.

الفرع الأول: تأثير البيئة الجاهلية على مفاهيم الموت:

لا مناص من القول بأن البيئة تلعب دورا كبيرا في عمليّة التّفكير لدى الفرد، وفي كيفية نظرته للحياة. فحياة الصّحراء والبيئة القاحلة والساخنة تختلف عن البيئة الباردة

التي تحتوي على الأراضي الخضراء والمناظر الخلابة التي تبهج وتسر الناظرين، وفي هذا الشأن يقول أحمد حسن الزيات" إن لجوء الإقليم أثرا طبيعيا قويّا في حياة أهله، فهو الذي ينهج لهم سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ويكون الكثير الغالب في أخلاقهم وطباعهم. والعربية شبه جزيرة جافه قاحلة قلّما يجودها الغيث وتوانيها العيون"[10].

إنّ الفرد الجاهلي في صدام دائم مع الطبيعة؛ من قساوة العيش والمناخ الصّعب، بناهيك عن التضاريس الوعرة التي هي غالبا ما تتكون من كثبان رملية وجبال قاحلة وعرة، فلهذا نجد مسحة التشاؤم ما تطفي على شعره من خوف وصعوبة المنطقة وقساوتها، ناهيك عن الكائنات الأخرى المفترسة التي تعيش بقربه؛ كالذئاب والضّباع والأسود أيضا، بالإضافة إلى العقارب والحيايا المتواجدة بكثرة.

وعلى إثر هذا نقول بأن الانسان قديما في تلك البيئة كان في صدام وصراع دائم بشكل يومي مع الموت، الذي كان من الممكن أن يفاجئه في أيّة لحظة، كما لا ننسى الفقر المدقع الذي كان حال أغلب السكان آنذاك.

تعتبر فكره الموت من الأفكار التي راودت الانسان العربي من العصور القديمة حتى وقتنا الحالي، خاصة إذا تقدم به العمر قليلا، فإنّ حتمية الموت تسيطر على ذهنه، فتبدا حينئذٍ الهواجس ونظرته تتغير نحو الأشياء خاصة نحو الحياة ومغرياتها.

وعليه؛ فإن الإنسان الجاهلي لم يكن بمعزل عن هاته الحقيقة التي لا مفر منها، فقد مثّل الموت في القصائد الشعرية محورا موضوعاتيا مهما، واختلف الشعراء الجاهليون في النظرة إلى فكرة الموت لكنهم اتفقوا بأنه فكرة حتمية لا مفر لهم منها، ونجدهم قد عبروا عنه في أشعارهم المختلفة، لكن كلاًّ حسب تصوره وإحساسه وشاعريته، ونضرب على هذا مثال من شعر طرفة بن العبد يتحدث فيه عن الموت فيقول:

لعمرُك إنّ الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثناياه باليد[11]

فهذا الشاعر من خلال أبياته يقرّ بحتمية الموت وبأنه آتٍ لا محالة.

ومن جهة أخرى يقول أبو ذؤيب الهذلي في الموت أيضا بقوله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع[12]

شبّه الهذلي المنية بالحيوان لحظة انقضاضه على فريسته، فإنه ينشب أظفاره، ناهيك عن أنّه لحظة مجيء الموت للإنسان فإنه لا ينفع شيء، لا التّعاويذ ولا التّمائم التي تعلق على الإنسان؛ لأنها لن تحميه من الموت.

جدير بالذّكر بأن البيئة الجاهلية قبل دخول عددا من الجاهليين للإسلام، كانوا ينكرون البعث وبأن الإنسان سيبعث مرّةً أخرى بعد موته، لأخذه جزائه من أعماله إن كانت خيرًا أو شرًا، ولهذا فإن الكفار قد بقوا على فكرتهم المعهودة بأنهم سيموتون فقط، أي سينامون نومة هنيئة ولن يستيقظوا منها لا لحساب ولا لعقاب، وفي هذا الصّدد يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ سورة المؤمنون، الآية: 37. وقوله أيضا سبحانه وتعالى في **سورة الجاثية**: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ **الآية: 24**. " وقال هؤلاء المشركون: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها، لا حياة سواها؛ تكذيبا منهم بالبعث بعد الممات، وما يهلكنا إلا مرُّ الليالي والأيام وطول العمر؛ إنكارًا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم، وما لهؤلاء المشركين من علم بذلك، ما هم إلا يتكلمون بالظن والوهم والخيال."[13]

الفرع الثاني: حضور الموت في شعر لبيد:

كان الموت في خطاب الشّاعر لبيد بن ربيعة سمة جمالية بارزة في أشعاره، التي جسدت قلق الشاعر من الموت، في ثنائيه ضديه بين الحياة والموت برزت في قصيدة لبيد: بلينا وما تبلى النّجوم الطوالع.

حيث تعد هذه القصيدة من أكثر القصائد التي عبّرت عن فلسفة الموت وقلق الشاعر منه، فهذه القصيدة جعلت من الشّاعر متفردا ومتميزا في طرحه ممّا أكسبه سمة جمالية وشاعريه لا سيما وأنها جاءت محمّلة بالعواطف المتنوعة التي اختلجت في نفس الشاعر.

لبيد في هذه القصيدة يرثي نفسه وأخاه من أمّه الذي مات وتركه وحيدا، فيذكر نفسه بالمنيّة التي هي حقٌّ على جميع الناس، وأن الدنيا ما هي إلا دار ارتحال وزوال وفناء.

إذن من المظاهر التي دلت على الموت داخل القصيدة هي قول الشاعر في مطلعها:

بلينا وما تبلى النّجوم الطوالع وتبقى بعدنا الجبال والمصانع[14]

بأسلوب منهك وحزين، يعبر الشاعر عمّا يدور في وجدانه، حيث ابتدأها بحتمية الزّوال والرّحيل عندما قال، سنهلك وسنندثر نحن بنو الإنسان في حين تبقى بعدنا النجوم والجبال والبيوت تاركينها وراءنا. وعليه يؤكد الشاعر بأن الإنسان هو الحلقة الأضعف هنا؛ لأن هذه هي خطه سير الحياة. فالبيت الأوّل يرثي فيه الشاعر حاله وحال النّاس أجمعين.

ثم يواصل بعدها الشاعر في بيت آخر، أين يتجلى فيه الموت، هذه الحقيقة الحتميّة فيقول:

وما النّاس إلا كالديار وأهلها بها يوما حلوها وغدوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوءه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما البر إلا مضمرات من التّقى وما المال إلا معمرات ودائع
وما المال والأهلون إلا وديعة ولابد يوما أن ترد الودائع[15]

تظهر جليًّا مسحة الحزن الممزوجة بهذه الحقيقة الثقيلة على الفرد، أن الناس راحلون وتبقى الديار فالأخير فارغة حتى ولو أقاموا فيها أجيالا كثيرة، ففي النهاية ستخلو وتظل فارغة ولا كأن بشرا سكنها.

ثمّ شبّه الإنسان بالشهاب في فترة حياته، ولكن ما إن يأتي أجله حتى ينطفئ ويكون كالرّماد لا يبقى إلا أثره، من البرّ والعمل الصّالح الذي سيتبعه فقط دون مال ولا أصحاب ولا أهل ولا خلاّن ولا جيران، فكلّها أمانات سترد يوما ما.

ثم يسترسل شعره بمسحة من الحزن والكآبة فيقول:

ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم ... كما ضمّ أخرى التاليات المشايع

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني وآخر رافع

فمنهم سعيد آخذ لنصيبه ... ومنهم شقي بالمعيشة قانع[16]

ظهرت شاعريه الشاعر من خلال ألفاظه الثقيلة المنتقاة بعناية، ذات المعاني المركزة التي حملت في طياتها حِكما عظيمة لبني الإنسان لا سيما وأنّه معروف بشاعر الحكمة والتأمل. فرأى بأنّ هؤلاء راحلون جميعا أي ميّتون، ونبقى بعدهم ننتظر دورنا. علاوة على أنّ الشاعر قد لخّص أصناف النّاس في الحياة وقسّمهم إلى صنفين إثنين؛ فالأوّل يخسر ما يبنيه وما يُشيّده، أمّا الصنف الثاني فإنه يبني حتى إن كانت من الأنقاض حتى ينجح، فمنهم من يكون سعيد برغد عيشه ويعيش حياة الرفاهية، ومنهم من يعيش حياة شقيّة ضنكا، لكنه راضٍ وقانع بها.

حملت هذه الأبيات مسحة حزن وإيمانه الكبير بالموت الذي سيأتي لا محالة، وحال الناس في هذه الدنيا الفانية، فدوام الحال من المحال.

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت ... أدِبُّ كأني كلما قمت راكع

فأصبحت مثل السّيف الذي غيّر جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع[17]

الشاعر من شده انتظاره للموت أصبح يستند على العصاء وتقدم به العمر أعمارا طويلة، فهو بينما ينتظر المنية يخبّر الأجيال القادمة من النّاس عن أخبار الزّمن الماضي الذي عاش فيه آبائهم. فهنا يشبه الشاعر نفسه وكأنّه بلغ من الزّمن عتيا.

لبيد كان ذا حكمة وتأمل كبيرين، نابع من نظرته المختلفة للحياة وإيمانه بالله تعالى، وجدير بالذّكر بأن شعره هذا قاله قبل أن يُظهر إسلامه للعلن، ولذلك نرى طرحا مختلفا وأسلوبا فريدا نبع من فلسفته العميقة للحياة. ثم ما يلبث أن يوجه الشاعر رسالة ناصحة للناس يذكرهم بحتمية الأجل حتى وإن تأخر عنك، لكنك ميت لا محالة؛ لأن هذه سنة من سنن الله في خلقه:

فلا تبعدن إن المنية موعد عليك فدان للطلوع وطالع[18]

حرص الشاعر على تذكير النّاس بالموت، وأنّ هذه الحياة الفانية ما هي إلاَّ دار انتقال وامتحان، وفيها يتذوق الإنسان جميع الابتلاءات، فينبغي على الفرد الصّبر وعدم القنوط والجزع من ذلك.

وفي هذا الصّدد يقول لبيد بن ربيعة مخاطبا الآخر:

أتجزع ممّا أحدث الدهر وأي كريم لم تصبه القوارع

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

سلوهن إن كذبتموني متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقع[19]

بأسلوب وعظ وإرشاد، ينصح الشاعر في هاته الأبيات الشّعرية أفراد قبيلته، إلى عدم التّطير والسّخط من أحداث الحياة، لأنّ الإنسان في هذه الحياة معرّض لجميع الابتلاءات والمخاطر، كما يؤكد الشاعر أيضا بأن الغيب لا يعلمه الإنسان بل يعلمه الله وحده سبحانه.

ثم يستطرد كلامه بسؤال سخري تهكمي هؤلاء الكهنة والدّجالين والمشعوذين عن موعد موت الفتى إن استطاعوا ذلك، أو حتى عن موعد نزول المطر!!، فبالطبع لا يعرفون ولن يعرفوا.

النّاس في ذلك العصر كانت لهم معتقدات تبنوها، بحيث كانت لهم منهجا في حياتهم توارثوه عن أسلافهم السّابقين، ولذلك كان الإنسان في تلك البيئة كثير المعتقدات

في كل شيء؛ منها ما تعلّق بالأمور الحياتية، ومنها ما تعلق بالأمور الغيبية، عن ماذا يمكن أن يصيبه حتى يتفاءل أو يتشاءم.

فقد كان الإنسان الجاهلي" يرمي الطائر بحصاة أو يصيح به فإذا طار من جهته يمينا كان ميمونا ودلّ على فأل حسن، وإلا فهو مشؤوم" [20]؛ وعليه فقد استخدم هذه الطريقة أيضا إن كان سيموت أو لا أو متى يموت.

استطاع شاعر الحكمة بأسلوبه الممزوج بين البساطة ونوع من التّعقيد، وقدرته البلاغية الفذّة والإبداعية في إيصال ما يختلج في داخله، عن إيمانه بالموت والبعث أيضا، وأنّ الدّار الدّنيا دار فناء وامتحان، وضرورة إيمان الإنسان بالله وعمل الخير، وهذا ما استطاع إيصاله من خلال القصيدة.

خاتمة:

إذن؛ ومن خلال ما تم طرحه أعلاه نقول بأنّ لبيد بن ربيعة، كان واحدا من أبرز الشّعراء الجاهليّين الذي تميّز بالحكمة وفطرته السّليمة التي رزقه الله بها، ففتح قلبه على الإيمان بالله وسلك المنهج السّليم.

- عبّرت هذه القصيدة عن إيمان لبيد بحتميه الموت والبعث، وأنّ الدّار الدّنيا ما هي إلاّ دار فناء.
- تميّز شعره بالحكمة والتأمل والتّفكير.
- اتّسم أسلوبه في قصيدته بجزالة التّعبير الممزوج بين الألفاظ البسيطة والمعقدة، كما اتّصف شعره بعمق المعنى وقوته.
- عبّر الشاعر عن أفكاره عن طريق الاستدلال ببعض من ألفاظ الطبيعة؛ لإعطاء عمق وتركيز أكثر للمعنى.

- رغم أنّ هذه القصيدة كانت تطرح فكرة حتميه الموت، إلاّ أنّها عبّرت أيضا عن فكرة قلق الشّاعر وخوفه من المنيّة، وهو قلق اعتيادي طبيعي يراود جميع النّاس في دواخلهم وذواتهم.

الهوامش:

[1] أحمد بن الأمين الشنقيطي، المعلقات العشر وأخبار شعرائها، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، ط1، 2018، ص31.

[2] ينظر: يحي الجبوري، لبيد بن ربيعة العامري، دار القلم، الكويت، ط3، 1983، ص.61

[3] نفسه، ص62.

[4] ينظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص31.

[5] نفسه، ص31.

[6] نفسه، ص38.

[7] نفسه، ص32.

[8] الشيخ مصطفى الغلاييني، رجال المعلّقات العشر، المكتبة العصرية، لبنان، دط، 1998، ص178.

[9] نفسه، ص182.

[10] أحمد حسن الزّيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، 1993، ص ص10، 11.

[11] محمد مهدي ناصر الدين، ديوان طرفة بن العبد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002، ص25.

[12] أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، شرح أشعار الهذليين، مطبعة المدني، مصر، دط، ص8.

[13] القرآن الكريم، تفسير سورة الجاثية، تاريخ الاطلاع، 30-05-2025، https://surahquran.com/aya-tafsir-24-45.html.

[14] لبيد بن ربيعة، بلينا وماتبلى النجوم الطوالع، الديوان، تاريخ الاطلاع، 20-05-2025، https://www.aldiwan.net/poem21175.html.

[15] نفسه.

[16] نفسه.

[17] نفسه.

[18] نفسه.

[19] نفسه.

[20] المعاني، زجر الطائر، https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%B2%D8%AC%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A7%D8%A6%D8%B1/?.